

## المحاضرة الخامسة

### موقف العلماء من علم الكلام

توطئة:

إن العوامل التي تسببت في بروزه علما مستقلا عوامل موضوعية وحقيقية، وكل هذا يؤدي في النهاية إلى اعتبار هذا العلم ذا أهمية وذا شأن كبير في دائرة العلوم والمعارف الإسلامية.

لكن في كيفية التعامل مع هذا العلم اختلف المشتغلون به، إذ برز كثير منهم يستغل هذا العلم لترويج أفكار خارجة عن الدين وليست منه في شيء، وهؤلاء الذين تصدى لهم العلماء بالحض على هجرانهم وتبديعهم، وفي مقابل أولئك نجد الجمهرة الكبرى اشتغلت بهذا العلم داخل دائرة الإسلام من الأصول المعتمدة في الشريعة الإسلامية غير خارجة عن إطارها، وهؤلاء هم الذين أيدهم عامة علماء الإسلام ولم يقصدوهم في ذمهم لعلم الكلام وأهله.

إذن فمن هؤلاء العلماء الذين ذموا علم الكلام وكرهوا الاشتغال به؟ ومن المقصود في هذا المنع والحظر والتحجير؟ وما هي الأسباب التي دعت البعض الآخر إلى منعه بالبت والمطلق على الجميع؟

ثم من هم العلماء الذين وقفوا موقف التجويز والإيجاب إزاء هذا العلم؟ وما أسباب هذا التوجه المؤيد؟

هذا ما سيحاول هذا الفصل الكشف عن بعض جوانبه من خلال مبحثيه هذين.

المبحث الأول: الراضون لعلم الكلام والأسباب الداعية إلى ذلك.

لقد نقلت مجموعة من الأقوال عن سلف هذه الأمة توهم في ظاهرها الزجر والمنع من الاشتغال بهذا العلم ودم أهله، ولكن التحقيق يفيد أنهم لم يقصدوا به عامة المتكلمين وإنما بعضهم فقط ممن اشتهر بالزندقة والفسق والمروق عن الدين. وخير ما يؤكد هذا المسعى كتاب شيخ أهل السنة والجماعة: "اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع" للإمام أبي الحسن الأشعري الذي رد فيه على المتكلمين الزائعين الذين لم يلتزموا بإطار النص المتزل.

أ. منع السلف للاشتغال بعلم الكلام على المبتدعة الزائغين:

سأقتصر في بيان هذا المرمى على أهم مقولات الأئمة الأربعة إذ هم شيوخ أهل السنة والجماعة، الذين يتبعهم عامة المسلمين في جميع أرجاء العالم الذين تجمعهم دائرة أهل السنة.

• من أقوال أبي حنيفة (ت ١٥٠ هـ) ما رواه عنه محمد بن الحسن (ت ١٨٩ هـ) قال: "قال أبو حنيفة: لعن الله عمرو بن عبيد فإنه فتح للناس الطريق إلى الكلام فيما لا يعينهم من الكلام". يبدو من خلال كلام الإمام أبي حنيفة أنه يقصد بالكلام المذموم هنا كلام القدرية المعطلة، وعمرو بن عبيد (ت ١٤٤ هـ) من مؤسسي هذا الاتجاه، وإلا فما الذي يفسر لنا تدوينه للفقهاء الأكبر، وهو كتاب خاص بالعقائد.

• من أقوال الإمام مالك (ت ١٧٩ هـ) ما نقله السيوطي (ت ٩١١ هـ) عن طريق ابن مهدي (ت ١٩٨ هـ) أنه قال: "دخلت على مالك وعنده رجل يسأل فقال: لعلك من أصحاب عمرو بن عبيد، لعن الله عمرا ابتدع هذه البدعة من الكلام، ولو كان الكلام علما لتكلم فيه الصحابة والتابعون كما تكلموا في الأحكام والشرائع". وفي كلام الإمام مالك أيضا تزكية لما قاله الإمام أبو حنيفة، وذلك من خلال موقفه من عمرو بن عبيد المبتدع المارق، الذي تكلم في أشياء لم ترد عن الصحابة رضوان الله عليهم.

• وفيما يخص موقف الإمام الشافعي (ت ٢٠٤ هـ) فقد أسند إليه عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي (ت ٤٨١ هـ) في كتابه "ذم الكلام" كثيرا من الآثار التي يذم فيها الإمام علم الكلام المتطرف، منها قوله: "لأن بيتلي الله امرءا بكل ما نهي عنه خلا الشرك، خير من أن بيتليه بالكلام". من خلال هذه القولة للشافعي يبدو أنه قصد بهذا الابتلاء: الابتلاء بعلم الكلام المذموم الذي يجر إلى التعطيل والزيف عن الحق والصراط المستقيم.

• ومن أقوال الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ) قوله: "أئمة الكلام زنادقة".  
هذا الكلام إن صح عنه فإنه يقصد بهم قطعاً أهل الكلام المنتطعين غير الموافقين  
للكتاب والسنة. ومن أهم ما يبرر هذا؛ موقفه المشهور من قضية خلق القرآن  
حيث امتحن فيه، ولم يتأت له ذلك إلا بعد أن خاض في مسائل هذا العلم  
الشريف.

ب. موقف المتأخرين من علم الكلام.

في إطار بحثي عن هذه الجزئية وجدت أن المتأخرين الذين اشتهروا بمعارضتهم علم الكلام  
والاشتغال به ينقسمون إلى فريقين: فريق أجازوه في بعض الأحيان ومنعه في أحيان أخرى،  
وفريق منعه على الإطلاق. وتفصيل ذلك فيما يلي:

١. الفريق الأول: هؤلاء أجازوا الاشتغال به عند الرد على الخصوم فقط ومنعوه لأجل  
الاستفادة والعبادة، فهؤلاء منعوا الخوض في علم الكلام ابتداءً، إلا أن يرى موضع حاجة  
يظن أنه إذا تكلم بالحق قبل منه، ويجذر أن يخطئ على الله فيرد الباطل بالباطل.  
ومن أهم الممثلين لهذا التوجه نجد ابن عبد البر (ت ٤٦٢ هـ) وابن تيمية (٧٤٤هـ—)  
والسيوطي (ت ٩١١ هـ).

فقد ذهب ابن تيمية إلى جواز مخاطبة أهل الاصطلاح باصطلاحهم إذا احتيج إلى ذلك  
وكانت المعاني صحيحة، وإنما كرهه الأئمة إذا لم يحتج إليه.

وعليه فإن أصحاب هذا التوجه اشترطوا شروطاً عدة على المشتغل بهذا العلم أهمها اثنان:  
- أن تكون هنالك ضرورة ملحة تدعو إلى الكلام كالدفاع أو الإرشاد.

- أن يتوفر في الذي يتولى جدال المبتدعة شرط إمامه بطرقهم حتى لا يقدروا عليه.

٢. الفريق الثاني: أما هذا الفريق فقد منعه منعاً باتاً مطلقاً، ولم يجيزوا أن يقابلوا، حسب  
رأيهم، البدعة بالبدعة حتى لو كان صاحب هذا العلم يقصد به نصره الكتاب والسنة.  
ومن أشهر من مثل هذا الاتجاه ابن رجب الحنبلي واللالكائي، يقول ابن رجب (ت ٧٩٥ هـ):  
"فأما الدخول في كلام المتكلمين والفلاسفة فشر محض، وقل من دخل في شيء من  
ذلك إلا تلتخ في بعض أضرارهم". ويقول الإمام اللالكائي (ت ٤١٨ هـ): "فما جنى

على المسلمين جنابة أعظم من مناظرة المعتدعة، ولم يكن لهم قهر وإذلال أعظم، مما تركهم السلف على تلك الحالة، يموتون من الغيظ كمدا، ولا يجدون إلى إظهار بدعتهم سبيلا، حتى جاء المغررون ففتحوا إليهم طريقا، وصاروا لهم إلى هلاك الإسلام دليلا، حتى كثرت بينهم المشاجرة، وظهرت دعوتهم بالمناظرة، أو طرقت أسماع من لم يكن عرفها من الخاصة والعامة."

هذا وإذا رجعنا إلى أقوال المعارضين بصفة عامة في موقفهم من علم الكلام نجد أنفسنا مرغمين على القول بأن هؤلاء، خلا الأئمة الأربعة، يغفلون تطور الفكر الإسلامي وعلم الكلام خاصة والعوامل التي أدت إلى نشأة هذا العلم، والهدف من إنشائه في إثبات العقائد الإسلامية والدفاع عنها وتوضيحها بأدلة عقلية واضحة. أما ما نقل عن الأئمة الأربعة وغيرهم من السابقين من الطعن فيه والمنع منه فإنما هو هؤلاء فقط:

-للمتعصب في الدين-

-للقاصر عن تحصيل اليقين-

-للقاصد إفساد عقائد المسلمين-

-للخائض فيما لا يفتقر إليه من غوامض المتفلسفين-

-للباغي الجدل المذموم الذي يفرق كيان الأمة والدين-

-للساعي إلى تكفير المسلمين وتبديعهم-

وما يمكن أن أختتم به هذا المبحث، أن علم الكلام لم يلاق اعتراضا من حيث هو كعلم، ولكن الذي لاقى اعتراضا بعض المسائل وطرق الاستدلال بين الفرق. وعليه فإن كل متكلم في العقائد فهو متكلم؛ فالباقلاني مثلا متكلم على مذهب الأشعري، وأبو معين النسفي (ت ٥٣٧ هـ) متكلم على مذهب الماتوريدي (ت ٣٣٣ هـ)، وابن تيمية متكلم على مذهب الحنابلة، وابن حزم (ت ٤٥٦ هـ) متكلم على مذهب الظاهرية، وابن رشد (ت ٥٩٥ هـ) متكلم على مذهب الفلاسفة، وهكذا. فمن نقد

علم الكلام فإنه ينتقد توجهها ومذهبها كلاميا محمداً، وهو المذهب الذي كان ينافسهم في زمانهم.

ومما يبرر هذا الطرح ويؤكداه تألق شيخ الإسلام ابن تيمية في علم الكلام، حيث نجد أنه قد خاض في كل مسألة خاض فيها المتكلمون الأشاعرة وغيرهم، وله فيها آراء سواء وافقهم أو خالفهم، متبعاً لغيرهم أو منفرداً برأيه الخاص له، فهو متكلم عريق ولكن على مذهب الحنابلة، ولأجل هذا وجدته في كتابه مجموعة الرسائل والمسائل يتهم المتكلمين بجهلهم أقوال السلف وأنهم لا يذكرونها في كتبهم بل يقتصرون على أقوال المتكلمين مثلهم. والسلف يقصد بهم الحنابلة، إذ لم يؤثر عن الصحابة وكبار التابعين أقوال خاصة في علم الكلام.

### المؤيدون لعلم الكلام.

#### ١. الذين قالوا بالجواز:

الحقيقة أن هناك عدداً كبيراً من علماء المسلمين جوزوا الاشتغال بعلم الكلام ومسائله، ومن هؤلاء الجوزين: إمام أهل السنة والجماعة أبو الحسن الأشعري الذي وضع رسالة في استحسان الخوض في علم الكلام، رد فيها على دعوى الحنابلة الذين ذموا علم الكلام ونهوا عن الخوض فيه. ومما جاء فيها:

"أما بعد فإن طائفة من الناس جعلوا الجهل رأس ما لهم، وثقل عليهم النظر والبحث عن الدين، ومالوا إلى التخفيف والتقليد، وطعنوا على من فتش عن أصول الدين، ونسبوه إلى الضلال، وزعموا أن علم الكلام في الحركة والسكون، والجسم والعرض، والألوان والأكوان، والجزء والطفرة، وصفات الباري عز وجل؛ بدعة وضلالة." "ثم بعد ذلك فند مستندات الرافضين، وعلق عليها بقوله: "وكلام المتكلمين في الحجاج في توحيد الله إنما مرجعه إلى الآيات التي ذكرناها وكذلك سائر الكلام في تفصيل فروع التوحيد والعدل، إنما هو مأخوذ من القرآن"، وفي موضع آخر يقول: "وأما أصلنا في

المناقضة على الخصم في النظر، فمأخوذ من سنة سيدنا محمد لم يقل: إن حدثت هذه الحادثة بعدي توقفوا فيها ولا تقولوا فيها شيئاً، ولا قال: ضللتوا وكفروا من قال بخلقه أو من قال بنفي خلقه . "لم يصح عنه حديث في أن القرآن غير مخلوق، قيل له: فأنت في توقفك في ذلك مبتدع ضال؛ لأن النبي ولتأكيد قوله بضرورة الخوض في علم الكلام دخل اعتمد أسلوب الفنقلة مع الذين يتوقع منهم التصدي لهذا العلم، فقال: "ثم يقال: النبي

ومن الذين قالوا بجوازه الإمام عضد الدين الإيجي، الذي أكد أهمية علم الكلام وفائدته وعلو مرتبته فقال في إطرانه على هذا العلم: "ليعرف قدره فيؤدي حقه من الجهد، قد علمت أن موضوعه أهم الأمور وأعلاها، وغايته أشرف الغايات وأجداها، ودلائله يقينية يحكم فيها صريح العقل. وقد تأيدت بالنقل وهي الغاية في الوثاقة، وهذه هي جهات شرف العلم لا تعدوها فهو إذن أشرف العلوم."

ومن الذين وقفوا موقف التأييد العلامة ابن خلدون حيث وافق على جوازه في آحاد الناس ورأى أنه يحقق نفعاً وفائدة مرجوة، قال: "ولكن فائدته في آحاد الناس وطلبة العلم فائدة معتبرة، إذ لا يحسن بحامل السنة الجهل بالحجج النظرية على عقائدها، والله ولي المؤمنين " ٢. الذين قالوا بوجوبه كفاية:

نجد ممن اشتهر بهذا الاتجاه الإمام الغزالي (ت ٥٠٥ هـ) والإمام ابن حجر الهيتمي (ت ٩٧٤ هـ) في الفتاوى المحمدية، والشيخ سعد الدين التفتازاني (ت ٧٩٢ هـ) في مقدمة شرحه على العقائد النسفية وابن رشد الحفيد في الفصل والكشف.

فمثلاً الإمام الغزالي نجده قد أكد أهمية علم الكلام وضرورته، وقال بوجوبه وجوب كفاية على العلماء، ومنع العامة عن مدارسته والخوض في مسائله، ولهذا نجده يقول: "لكن تطبيقه على العوام ينبغي أن يجري مجرى الأدوية التي يعالج بها مرضى القلوب. والطبيب المستعمل لها إن لم يكن حاذقاً ثاقب العقل رصين الرأي كان ما يفسده بدوائه أكثر مما يصلحه". وفي الإجماع يقول: "ينبغي أن يعرف الخلق جلال الله الخالق وعظمته، لا بقول المتكلمين أن الأعراض حادثة وأن الجواهر لا تخلو عن الأعراض الحادثة فهي حادثة، ثم

الحادث يفتقر إلى محدث، فإن تلك التقسيمات والمقدمات وإثباتها بأدلتها الرسمية يشوش قلوب العوام، والدلالات الظاهرة القريبة من الأفهام على ما في القرآن تنفعهم وتسكن نفوسهم وتغرس في قلوبهم الاعتقادات الجازمة. "

أما العلماء وطلاب العلم فقد ألزمهم بهذا العلم وأكد أنه فرض عين عليهم، وهو على الباقي من فروض الكفاية؛ لأنه لا يجب على كافة الخلق إلا التصديق والجزم وتطهير القلب عن الريب والشك في الإيمان، وإنما تصير إزالة الشك فرض عين في حق من اعتراه الشك.

ومن الذين قالوا بوجوب النظر الإمام ابن رشد الحفيد إذ قال: "وإذا تقرر أن الشرع قد أوجب النظر بالعقل في الموجودات، واعتبارها، وكان الاعتبار ليس شيئاً آخر أكبر من استنباط المجهول من المعلوم واستخراجه منه، وهذا هو القياس، فوجب أن نجعل نظرنا في الموجودات بالقياس العقلي. "

وفي موضع آخر يدافع على وجوب النظر فيقول: "وليس لقائل أن يقول: إن هذا النوع من النظر في القياس العقلي بدعة، فكذلك يجب أن نعتقد في النظر في القياس العقلي، ولهذا سبب ليس هذا موضع ذكره. "

وقد ذهب الدكتور السيد محمد عقيلي بن علي المهدي إلى استخلاص وجهة نظره بعد ما عرض مواقف العلماء من هذا العلم، فقال: "ومعرفة هذه المباحث على وجه الإجمال فرض عين على كل مسلم وعلى وجه التفصيل من فروض الكفاية. "

وبالجملة فإنه يستخلص من هذا الذي ذكرناه أن العلماء الذين أجازوا هذا العلم واشتغلوا به، إنما دفعهم إلى ذلك أسباب ومقاصد هذه أهمها:

١. ضرورة تقعيد وتفصيل المسائل حسب الحاجة إليها تبعاً لتعدد زوايا النظر واختلافها في كتاب الله المسطور وكتاب الله المنظور.

٢. كثرة الاختلافات في العقيدة، وتطور خطرهما.

٣. تجدد الوقائع والأحداث التي لم تكن في عصور الأسلاف.

٤. استدعاء الوقت لهذه المصلحة فوجب رعايتها وإن لم يكن الشأن فيما سلف ذلك.

## ٥. الدفاع بالجدل ضد ديانات وأفكار غلب على أمرها الجدل.

### أبرز علماء الكلام

- أبو الحسن الأشعري.
- أبو منصور الماتريدي.
- الحارث المحاسبي.
- أبو المعالي الجويني.
- أبو حامد الغزالي.
- فخر الدين الرازي.
- أبو بكر الباقلاني.
- أبو إسحاق الإسفراييني.
- أبو بكر بن فورك.
- سعد الدين التفتزاني.
- أبو عبد الله السنوسي.
- أحمد الدردير.
- إبراهيم اللقاني.
- إبراهيم الباجوري.